شرح

أنوار السرائر وسرائر الأنوار

المؤلف

احمد بن يوسف الفاسي

شرح الرائية المسماة بأنوار السرائر و سرائر الأنوار للشيخ العارف بالله تاج الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن خلف القرشي التميمي البكري الصديقي الشريشي الصوفي ولد بـ سلا و نشأ بالمغرب و استوطن: الفيوم (مصر) و بها توفي.

عنوان المخطوط : شرح انوار السرائر و سرائر الانوار
اسم المؤلف : احمد بن يوسف الفاسي
النص غير كامل

بسم الله الرحمن الرحيم
و صلى الله على سيدنا محمد و على آله و صحبه و سلم

قالَ الشيخُ الفقيهُ العالمُ العلّامة المحدِّث العارف الورعُ **سيدي أحمـد بنُ يوسـف بنُ محمد بنُ يوسف الفاسي** رحمه الله تعالى ورضي عنـه ونفعنـا ببركاتـه آمين و سـلامٌ على المُرسلين والحمد لله رب العالمين.

الحمدُ لله الكبير المتعال، الواحد الصمد العزيز الجلال، المتردي برداء العظمة والكبرياء والكمال، بارئ النسم، ومبدع الحكم، وفالق الإصباح وملهم الأرواح بما شاء من نفائس الإصلاح، ومبدأ أمة شريفة فاقت سائر الآنام، وجعل فيها ومنها علماء حكماء وصيّرهم معالم

الهدى، ومصابيح الاقتداء فلا يزال فيهم أئمة أعلام، بهم تفوح الجنّة وتتضح الحجّة حاملين أعباء الخلق حائزين نصبَ السَّبق، وقدم الصدق متضلعين بالحقيقة متمسكين بعروة الدين وشعار الإسلام، وصلى الله وسلم على النور الأوّل الذي منه امتدّت الأنوار، والسرُّ الأكمل الذي منه انشقت الأسرار، المنَبّأ وآدم بين الماء والطين، والمُرسل أوّلًا وباطناً رحمةً للعالمين، والمبعوث آخراً وظاهراً بشيراً ونذيراً للأحمر والأسود والجن والإنس أجمعين سيدنا ومولانا محمَّدٍ بن عبد الله صاحب الكلمة الجامعة والرسالة المحيطة والوسيلة والدّرجة الرَّفيعة والحوض المورود، واللواء المعقود، والمقام المحمود، لبنة التمام، ومن له الفتح والختام، والحائز للمقامات العلية بالتمام، وعلى آله وأصحابه أولي النهى والإصلاح، أعلام الأمة ومصابيح الظلام، ومن تبعهم بإحسان متابع تابعيهم ما دامت الليالي والأيام.

وبَعد : فلمّا كـانت القصـيدة المسـمّاة بـ **أنوار السـرائر، وسـرائر الأنـوار** للشـيخ الإمـام الهمام العالم العلّامة، البحر الفهّامة، المشـارك المتبني الزاهر العامل العارف الكامل المحقـق المرقي الواصل أبي العبّـاس تـاج الـدين أحمـد بن محمـــد البكـــري المعـــروف بـ **الشريشي**

أفرغ الله عليه شآبيب الرضوان وأسكنه في فردوس الجنان من أجل ما نظَّم في تدريج السلوك، إلى حضرة مَالك الملوك، لكونها مع صغر جرمها، غزير علمها، ذات عبارات رائعة، وعذوبة في نظمها،ومعان فائقة، وطلاوة قد صحبتها حسبما نبين بعض ذلك في محله، فاحتوت على جملة من آداب الطريق ومهمَّاتٍ وترويج سلوكه، وذكر أحواله ومقاماته.

وكان فقراء العصر ومَن قبلهم يتعاطونها ويهتمون بها ويحضهم شيوخهم عليها ولم يكن لها مع ذلك شرح يرفع عن وجوه أسرارها حجب الامتناع، وينشر بين يدي أخدانها حلل الاتباع. رأيتُ أن أضع عليها شرحاً يكمل به الإمتاع، لا آل جهداً في تحقيقه وإيضاحه وجهد المقل يستحسن ويشكر وإمساك المكثر ذنبٍ لا يكاد يُغفر والحامل لي مع ذلك عليه أيضاً أن بعض الإخوان لم يزل يلح علينا ويتردد بالمسألة إلينا في وضع شرح عليها والله ينفعنا وإياه بما جرى على أيدينا بسببه، وكنتُ أفتتح لقلّة فهمي وعلمي وقصر باعي ووقوفي مع شاهدي ورسمي ثم ظهر لي أن الإجابة أوجب، وإلى الإصابة أقرب، لانقراض العلم وذهاب أهله وظهور الجهل وكثرة الدعاوى الكاذبة ونسبة

الطَّريق لغير مستحقه، وإتيان البيت من ظهره، وقصـــره على غـــير وجهـــه، فتحيَّن لي جـــواب السـائل على قـدر الاسـتطاعة والقائـل راجعين في ذلك لما ينقل من معادنه، ويفتح الله به من كريم خزائنه، طالبين من ذوي العلم إصـلاح مـا يظهـــر من اختلالـــه، وســـائلين فضـــلهم نظـــرة بالشـــفقة والانصـــاف، وإصـــلاح خللـــه بالتأويـــل والتصـــحيح والإســـعاف، فـــإنّ من صـــنَّف فقـــد اســتهدف، ومَن أظهــر علمــه فقــد ولّى النــاس حكمه، ومن ستر مسلماً ستره اللــه، ومن تتبــع عورة أخيــه تتبَّع اللــه عورتــه، والمــؤمن يلتمس المعاذير، والمنافق يتتبع العيوب، والله ســـبحانه أسأل أن ينفع به من قصده ويوفق للعمل به أو ببعضــه من اعتمــده، وأن يجعلــه خالصــاً لوجهــه الكريم، ويجعله حجتنا الراجحة علينــا، ولا حـــول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا ونبينــا ومولانــا محَمَّدٍ المصــطفى الكــريم وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم وحسبنا الله ونعم الوكيل.

مقدمة في التعريف بالناظم رضي الله عنه حسبما رأيتُ في إثمد العينين وغيره.

هو أحمد بن محمد بن خلف القرشي التيمي البكري الصديقي سلوي الأصل حديثاً بشريش.
وُلدَ بسكاسنة إحدى وثمانين وخمسمائة ونشأ بمراكش واستوطن الفيوم من مصر حرسها الله وبها توفي في رابع الأول سنة إحدى وأربعين وستمائة وقيل منتصف شهر صفر ستة ثلاث وأربعين وستمائة وأربعين.
ولقبه هناك تاج الدين وكنيته أبو العباس، كان رضي الله عنه وافر الحظ من علم البيان نحواً وأدباً، شاعراً محسناً محقِّقاً لعلم الكلام، بارعاً في أصول الفقه، متقدِّماً في التصوف وإليه انقطع وعليه عوّل وفيه صنَّف ونظم في مقاصده وتدريج سلوكه قصيدته هذه التي سمَّاها "أنوار السَّرائر وسرائر الأنوار" وأخده الناس عنه وطارت كل المطار، جادة في نظمها وخبطها وأحكام ما اشتملت عليه من هذا الفن . قال صاحب إثمد العينين : إنَّ هذه القصيدة حجَّة عند أهل الطريقة، ولم يزل المشايخ رضي الله عنهم يحضون عليها ويوصون تلامذتهم بالعمل بها، ثمَّ نقل عن الشيخ أبي عبد الله محمد الدقي ميري رضي الله عنه أنه كان كثيراً ما يحرض عليها أصحابه وجميع تلامذته، شديد العناية بها وملتزم الخير

للمداوم عليها، قال وكان وهو يديم الكلام عليها ويشرح بعض مقاماتها.
وأخذ الناظم رضي الله عنه عن جماعة بمراكش، ثمَّ جال في طلب العلم وأخذ بفاس عن الإمام الأصولي العامل الزاهد أبي عبد الله محمد بن علي بن عبد الكريم الفندلاوي المعروف بالكتّاني والشيخ الإمام العالم العلّامة النحوي أبي ذر مصعب بن الإمام النحوي أبي عبد الله محمد بن مسعود بن أبي ركب الخشني الإشبيلي ثم الفاسي من ذرية أبي ثعلبة الحسني الصحابي رضي الله عنه والشيخ أبي العباس بن أبي القاسم بن الخيال ووصل إلى الأندلس فأخذ عن بعض أهلها ثمَّ شرَّق وحجَّ.
و روى ببغداد عن الإمام العالم أبي صالح نصر بن الإمام العالم أبي محمد بن عبد الرزاق بن قطب الصديقيين وحجَّة الله في العالمين محيي الملة والدين، **أبي عبد القادر** بن أبي صالح الشريف الحسني المعروف بالجيلاني، والشيخ المحدث التاريخي أبي الحسن محمد بن أحمد القطيعي، والشيخ أبي محمد قيصر بن فيروز بن عبد الله الحنبلي، وأخذ علم الكلام عن الشيخ الإمام الكبير تقي الدين أبي العز مظفّر بن عبد الله بن علي بن الحسين الأزدي الشافعي المعروف (بالمفتاح)، وأخذ

أصول الفقه بالإسكندرية عن الشيخ الإمام علم الأعلام شمس الدين أبي الحسن علي بن إسماعيل بن علي بن حسن بن عطية الأبياري المالكي، وأخد التصوف ذوقاً وإشراقاً ببغداد عن شيخ شيوخ وقته وقدوة أهل عصره ترجمان الطريقة سلطان أهل الحقيقة شهاب الدين أبو حفص ويكنَّى أبو عبد الله عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله القرشي البكري التيمي الصديقي ثمَّ الشافعي المعروف بالسَّهروردي صاحب عوارف المعارف التي هي قصد هذه القصيدة والله أعلم.

وأخد الطب عن أبي بيان، وروى عن الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن إبراهيم القيسي السَّلاوي نزيل تونس لَقِيَه بالفيوم من مصر وحدث الشيخ أبو يعقوب يوسف التادلي رضي الله عنه صاحب التشوف عن والد الناظم رضي الله عنهما في موضعين منه.

وَلنَرجعْ إلى ما كنَّا بصدده فنقول والله المستعان وعليه التكلان : لمَّا أمعنتُ النظر في هذه القصيدة وجدته قد بنى الطريقة على ثلاثة أركان وهي : **التوبة** والزهد ودوام العمل لله ظاهراً وباطناً، وأمَّا الشيخ فهو شرط في إيقاع ذلك على ما ينبغي ووصول المقصد في أسرع زمان وعلى أكمل وجه كما هو شيخ الركب في

الحس لا تنظر لتحمل الماهية بدونه، وسيأتي الكلام على الشيخ أين يكون شرط وجوب وشرط كمال، وجعلَ أيضاً للتوبة مقدمات وهي الزَّاجر والانتباه واليقظة ومتممات وهي المجاهدة والمحاسبة والمراقبة، وأمَّا الورع فهي عنده مصحح للتوبة لمقدماتها ومتماتها على ما سيأتي.

وقد أخد هذا المعنى كله من عوارف المعارف، إلاّ أنَّ صاحب عوارف المعارف لم يذكر الورع لأنه أخد **المجاهدة** عامَّةً فدخل فيها ما ذكر الناظم أول الورع وغبره
من **المراقبة** والرعاية، والناظم ذكر فيها ما يلقى المريد في أوّل أمره، ثم درجه للمحاسبة ثمَّ وجَّه في المراقبة ثمَّ ذكر باقي ذلك في الورع، أمّا أخده لما بنى عليه الطريق من العوارف فقال فيها التوبة أصل كل مقام، وقوام كل مفتاح، ومفتاح كل حال، وهي أول المقامات وهي بمثابة الأرض للبناء، فمَن لا أرض له لا بناء له، ومن لا توبة له لا حلال له ولا مقام، وإني بمَبْلغ علمي وقدر وسعي وجهدي اعتبرتُ المقامات والأحوال وثمراتها فرأيتها يجمعها ثلاثة أشياء بعد صحَّة الإيمان وعقوده وشروطه فصارت مع الإيمان أربعة، ثمَّ

رأيتها في إفادة الولادة المعنوية الحقيقية بمثابة الطَّبائع الأربعة التي جعلها الله بإجراء سنته مفيدة للولادة الطبيعية، ومن تحقَّق بحقائق هذه الأربعة يلج ملكوت السموات ويكاشف بالقدر والآيات ويصير له ذوقاً وفهم كلمات الله المنزلات، ويحظى بجميع الأحوال والمقامات فكلها من هذه الأربع ظهرت وبها تهيّأت وتأكّدت أعني الثلاث بعد الإيمان التوبة النَّصوح، والثاني الزهد في الدنيا، والثالث تحقيق مقام العبودية بدوام العمل لله ظاهراً وباطناً من الأعمال القلبية والقالبية من غير فتور وقصور، ثم يستعان على إتمام هذه الأربعة بأربعة أخرى بها تمامها وقوامها، وهي قلَّةُ الكلام وقلة المنام وقلة الطعام والاعتزال عن الناس، واتفق المشايخ والعلماء الزاهدون على أنَّ هذه الأربعة بها تستقر المقامات وتستقيم الأحوال، وبها صار الأبدال أبدالاً بتأييد الله تعالى وحسنَ توفيقه، وتبيِّن بالبيان الواضح أن سائر المقامات تندرج في صحَّة هذه ومن ظفر بها ظفر بالمقامات كلها.

ثمَّ شرعَ في بيان ذلك كما سننقل كلامه بأجمعه شيئاً بعد شيء في محاله إن شاء الله تعالى. وأمَّا ما جعل للتوبة من المقدمات

والمتمِّمات فسيأتي إن شاء الله تعالى ولنقدم أمام الشروع في المقصود التنبيه على شيئين:

الأوَّل : أنَّ الناظم رضي الله عنه لم يذكر في أوّل قصيدته البسملة والحمدلة، وقد وردت الأحاديث في الحثّ على بدءِ الأشياء بالحمد والبسملة أو ذكر الله مُطلقاً على حسب ما ورد في خبر رواه أبو داوود والنسائي وابن ماجة وأبو عوانة وابن حبَّان والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (**كُلُّ كَلَامٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِالْحَمْدِ فَهُوَ أَقْطَعْ بَلْ أَجْذَمُ**) وهذا لفظ أبي داوود ولفظُ النسائي وابن حبّان : (**كل أمر ذي بال لم يبدأ فيه بذكر الله فهو أقطع**) رواه النسائي عن الزهري مرسلاً بلفظ : (**كل كلام لا يبدأ فيه بذكر الله فهو أبتر**) قال والمرسل أولى بالصَّواب. ووقع في الأربعين للحافظ الرَّهاوي بلفظ : (**لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع**) وله أيضاً : (**لا يبدأ فيه بحمد الله والصلاة على محمد فهو أقطع أبتر ممحوق من كل بركة**) قال ابن حجر هذا الحديث أخرجه أبو عوانة في صحيحه وصحَّحه ابن حبَّان أيضاً في إسناده فقال : (**و على**

تقدير صحته فالرواية المشهورة فيه بلفظ بحمد الله وما عدى ذلك من الألفاظ وردت في بعض طرق الحديث بأسانيد واهية) على أنَّ ابن الصّلاح وغيره قد حكم على هذا الحديث بالحسن، ولعلَّ الناظم رضي الله عنه لشدَّة تعطّشه إلى ذكر ما بَيْنَ المَسالك ومحبة سرعة الائتمار للوارد الآمِر بذلك، شرع في مقصود مِن أوّل وَهلة مكتفياً بحمد الله في نفسه، لكونه إذ ذاك كان بحكم وقته إمّا مأخوذاً عن نفسه مقتطعاً عن دائرة حسِّه ناطقاً لِما بلسانهِ مسطراً لِما ببنانه، ومَن كان كذلك فلا تسلط لِشيء من تلك الأحاديث عليه ولا حقّ لها ثابتاً لديه، كأنّ التكليف مشروط بقدرة الاكتساب والحكم كما يتوجّه ما لم توجد الشروط والأسباب، على أنَّ ظاهر ما ورد من الأحاديث ليس فيه ما يقتضي أنه كابرَ من كتب الحمد المبتدأ به على صفة ما أريد الشروع فيه من نظمٍ أو نثرٍ أو سمعٍ، بل الظاهر أن حمده باللسان يكتفي به وكتبه على غير صفة المقصود كذلك كان يكتب لفظ الحمد لله ثمَّ يشرع في نظمٍ أو سجع والظن بالنّاظم كذلك فحل.

الثاني

: أني لما رأيت هـذه القصـيدة متحضِّـرة النظم غاية، وتراكيبها مفخرة ونهاية، ورأيتُ مـع ذلـك، أي أكـثر متعاطيهـا أربـاب قلـوب ومعـاني، لا اعتناء لهم ولا اسـتعداد لتحقيـق المبـاني، حـتى كثَرَ في متنها بسبب ذلك التخليط، ارتكبت فيها طريقاً عـدلا بين الافـراط والتفريـط، فضـبطتُ بعض ألفاظهـا وأعـربتُ جُـلَّ تراكيبهـا، وقـدّرت غالب غالب أبياتها تقديراً، رددت فيـه شـواردها إلى مَعَاطِنِهَا وعقالتها ليكون ذلك تميمة لها من حمى التحريـــف، ورقيـــة من لســـع عقـــرب التصحيف، وإلاَّ فإدخال ذلـك في كتب التصـوف عسـيف، وبـرهنتُ على تحـيين مقصـود بويتـات من متشـــابهها كي لا يتســلط أهــل التشــديق فيحملونهـــا مـــا لا تطيـــق، وإعانـــة لمن طلب التحقيـق واللـه ولي التسـديد والتوفيـق واللـه المستعان وعليه الاتكال. ولمَّا كانت التوبة مبدأُ طريـق السـالكين ورأس منـال الفـائزين وأوَّل أقـداح المريـدين، ومفتـاح اسـتقامة المـائلين، ومطلـع الاصـطفاء والاجتبـاء للمقـربين وجب تقديمها.

ولمَّا كـانت أيضـاً لا بــدَّ في ابتـدائها من وجـود زاجر بدأ فقال رضي الله عنه :

إذا مَا بَدا مِنْ بَاطِنٍ حالةُ الزَّجْرِ ... فَمَا هُوَ إلَّا البِرُّ مِنْ مِنَحِ البِرِّ

إذ ظـرف مسـتقبل خـافض لشـرطه منصـوب بجوابه وما بعده زائدة على القاعدة "وبــدا" أي ظهــر، وفي بعض النســخ "بــدت" بالتـأنيث ولا كلام على هـذه النسـخة لأنَّ فاعلـه مـؤنث ومـا في الأصل فصيح أيضا كمـا نُبيِّنـه إن شـاء اللـه تعالى. كأنه وإن كان فاعله مؤنثا فليس بضـمير ولا حقيقي التأنيث والتاء إنما تلزم فيهمـا وعلى تقـدير لزومهـا مطلقـاً فالمضـاف قـد يكتسـب التذكير من المضاف إليه كقوله :

رُؤْيَةُ الفِكْرِ مَا يَؤُولُ لَهُ الأَمْـ ...... ـرُ مُعِينٌ عَلَى اجْتِنَابِ التَّوَانِي

ولمَّا لم يكن كلامَه مع شخصٍ معيَّن قال : "مِن باطنٍ" بالتنكير، أي من بـاطن البـواطن وَ"مِنْ" فِي كَلامِهِ يُحْتَمَلُ أَنَّهَا بِمَعْنَى فِي، عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ مِنْ يَـوْمِ الجُمُعَـةِ﴾.وهـو موافـق للفـظ

العـوارف. وَيُحْتَمَـلُ أَنَّهَـا عَلَى بَابِهَـا مِنِ ابْتِـداءِ الغَايَةِ، وَيَكُونُ انْتِهَاؤُهَا ظُهـورُ تِلْـكَ الحَالَـةِ عَلَى ظَاهِرِ العَبْدِ، لِأَنَّ ظُهُورَ ذَلِكَ الزَّاجِرِ لِبَاطِنِ العَبْدِ مَـا لَمْ يَظْهَـرْ عَلَى ظَـاهِرِهِ أَثَـرُهُ مِنَ الاِنْزِجَـارِ وَ الاِنْكِفَافِ لَا عِبْرَةَ بِهِ. وحالة الزجر فاعـل "بـدا" ولم يـؤنث فعلـه مـع أنـه مـؤنث لأنـه مجـازى التأنيث، كمـا يجب تـأنيث الفعـل معـه، على أن مثل هذا التركيب لا يجب تأنيث الفعل فيه، ولـو كان الفعل فيه ولو كـان الفعـل حقيقي. الثانيـة للفصـل بينـه وبين الفعـل على أنـه لـو لم يكن بينهما فصل ما وجب التّأنيث أيضا في مثل هـذا لإضـافة الفاعـل المـؤنث لمؤكّدٍ فيكتسـب منـه التذكير على حد قول الشاعر :

إنارة العقل مكسوف بطوع هوى ... وعقل عاصي الهوى يزداد تنويرا

وقول آخر :

رُؤْيَةُ الْفِكْرِ مَا يَؤُولُ لَهُ الْأَمْــ ...رُ مُعِينٌ عَلَى اجْتِنَابِ التَّوَانِي

والزجر لغة المنـع والنهي وعنـد القـوم سـيأتي، وقوله فما هو الضير عائـد لحالـة الزجـر وذكّره كأَنَّ خبره مذكّر وهو إلّا البر إلى آخره، والمبتدأ إذا كان ضمير أو كان بين مبتدأه وخبره مخالفة بالتـذكير والتـأنيث يجـوز تـذكيره وتأنيثـه والبِـر

الأول بكسر الباء بمعنى الصلة والخـير وتسـارع الإحسـان، والثـاني بفتحهـا من أسـمائه تعـالى وتقـدَّس، معنـاه فيـه المحسـن الـذي منـه كـل مبشرة وإحسان الموصل ذلك إلى خلقه بلطفٍ ورحمـة من غـير استشـراق إلى جـزاء وعـوض منهم ، وفيـه مناسـبة للمقـام والمنح. العطايـا جمـع منحـة وبين قولـه البِـر والبَـر التجـنيس المُحرى مثل البرد والبرد من قولهم جبـة الـبرد جنـة الـبرد وسـمي محرفـا لانحـراف إحـدى الهيئتين عن الأخرى. يقول واللـه أعلم : إذا بـدا وظهـر للعبـد من باطنـه على ظـاهره أو في باطنه الذي هو خزنة من خزائن الملكـوت حـال النهي عن المخالفات والزجر عن المنهيات فمـا هو الأخير وعطية من مواهب الله وعطاياه لديه لأنه ليس لـه في ذلـك كسـب ولا تعمـل، وإنمـا هي عناية من الحق تعالى وتقـدَّس؛ سـبقت لـه ومعونة من الله لحقته، ورحمة من الله غَمرته، فيعلم أنه عبـد منظـور إليـه متـدارك حيث فض طابع قلبه وجعل فيه واعظ قائم، وزاجر مؤيـد، وفي الخبر : "إذا أراد الله بعبـد خـيراً جعـل لـه زاجرًا من نفسه و واعظـاً من قلبـه" وسـيجيء أن الأحوال مواهب، وأصل الـبيت في العـوارف أثر ما قدَّمناه من غير فصل، أولها بحـر الإيمـان التوبة وهي في مبدأ صحتها تفتقـر إلى أحـوال، وإذا صحَّت تشـتمل على مقامـات وأحـوال، ولا

بدَّ في ابتدائها من وجود زاجر، ووجدان الزاجــر حال، لأنه موهبة من اللــه تعـالى على مـا تقـرّر أنَّ الأحوال مواهب وحـال الزجـر مفتـاح التوبـة ومبدأها، قال رجل لبشر الحافي : "مــالي أراك مهمومــاً ؟ قــال : لأني ضــال مطلــوب ضــللت الطريق والمقصد وأنا مطلوب بـه، و لـو تـبيَّنت كيف الطريق إلى المقصـد لطلبت، ولكن سـنة الغفلـة أدركتـني وليس لي منهـا خلاص إلى أن أزجر فأنزجر"، قـال الأصـمعي : "رأيت أعرابيًـا بالبصرة يشـتكي عينـه وهي يسـيل منهـا المـاء فقلت : ألا تمسح عينيك ؟ فقال لا لأنَّ الطـبيب زجــرني ولا خــير فيمن لا يــنزجر" فــالزاجر في الباطن حال يهبها الله تعالى ولا بدّ من وجودهــا للتائب.

ولنـــذكر كلام صـــاحب العـــوارف في الحـــال والمقام لما اشتمل عليه من التحقيق والفوائد.

قــال : (قــد كـثر الاشـتباه بين الحـال والمقـام، واختلفت إشــارات الشــيوخ في ذلــك، ووجــود الاشـــتباه لمكـــان تشـــابههما في نفســـهما وتداخلهما، فتراءى للبعض الشيء حالًا وتــراءى للبعض مقامًــا، وكلا الرؤيــتين صــحيح؛ لوجــود تداخلهما، ولا بد من ذكـر ضـابط يفـرق بينهمـا، على أن اللفظ والعبارة عنهمـا مشـعر بـالفرق،

فالحال سمي حالًا لتحوله، والمقام مقامًا لثبوته واستقراره.
وقد يكـون الشـيء بعينـه حـالًا ثم يصـير مقامًـا مثل أن ينبعث من باطن العبد داعية المحاسبة، ثم تزول الداعية بغلبة صفات النفس، ثم تعـود، ثم تزول فلا يزال العبد حـال المحاسـبة يتعاهـد الحال، ثم يحـول الحـال بظهـور صـفات النفس إلى أن تتداركه المعونة من الله الكريم، ويغلب حـــال المحاســبة، وتنقهــر النفس وتنضــبط، وتتملكهـا المحاسـبة، فتصـير المحاسـبة وطنـه ومستقره ومقامه، فيصير في مقـام المحاسـبة بعد أن كان له حال المحاسبة.
ثم ينازله حال المراقبـة، فمن كـانت المحاسـبة مقامه يصير له من المراقبة حال.
ثم يحول حال المراقبة لتنـاوب السـهو والغفلـة في بـاطن العبـد إلى أن ينقشـع ضـباب السـهو والغفلة، ويتدارك اللــه عبـده بالمعونـة، فتصـير المراقبة مقامًا بعـد أن كـانت حـالًا، ولا يسـتقر مقام المحاسبة قراره إلا بنازل حـال المراقبـة، ولا يستقر مقام المراقبة قـراره إلا بنـازل حـال المشاهدة، فإذا منح العبد بنازل حال المشاهدة اســتقرت مراقبتــه، وصــارت مقامــه، ونــازل المشـاهدة أيضًـا يكـون حـالًا يحـول بالاسـتتار، ويظهــر بــالتجلي، ثم يصــير مقامًــا، وتتخلص شمســه عن كســوف الاســتتار، ثم مقــام

المشاهدة أحوال وزيادات وترقيات من حال إلى حال أعلى منه، كالتحقق بالفناء، والتخلص إلى البقاء، والترقي من عين اليقين إلى حق اليقين، وحق اليقين نازل يخرق شغاف القلب، وذلك أعلى فروع المشاهدة.

ولما كان الأصل في الأحوال هذه الحالة وهي أشرف الأحوال، وهي محض موهبة لا تكتسب سميت كل المواهب من النوازل بالعبد أحوالًا؛ لأنها غير مقدورة للعبد بكسبه فأطلقوا القول، وتداولت ألسنة الشيوخ أن المقامات مكاسب، والأحوال مواهب وعلى الترتيب الذي درجناه كلها مواهب؛ إذ المكاسب محفوفة بالموهبة، والمواهب محفوفة بالكسب، فالأحوال مواجيد، والمقامات طرق المواجيد، ولكن في المقامات ظهر الكسب وبطنت الموهبة، وفي الأحوال بطن الكسب وظهرت الموهبة، فالأحوال مواهب علوية سماوية، والمقامات طرقها.

وقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله عنه: سلوني عن طرق السماوات؛ فإني أعرف بها من طرق الأرض، إشارة إلى المقامات والأحوال، فطرق السماوات: التوبة والزهد وغير ذلك من المقامات، فإن السالك لهذه الطرق يصير قلبه سماويًّا، فهي طرق السماوات ومستنزل البركات وهي الأحوال لا يتحقق بها إلا ذو قلب سماوي.قال بعضهم:

الحال هو الذكر الخفي، وهذا إشارة إلى شــيء مما ذكرناه.
وسمعت بعض المشايخ بالعراق يقولون: الحال ما من الله، فكل ما كان من طريــق الاكتســاب والأعمال يقولــون: هــذا مــا من العبــد، فــإذا لاح للمريد شيء من المواهب والمواجيد قالوا: هذا مــا من اللــه وســموه حــالًا إشــارة منهم إلى أن الحال موهبة.
وقال بعض مشايخ خراســان: الأحــوال مــواريث الأعمال.
وقــال بعضــهم: الأحــوال كــالبروق، فــإن بقي فحــديث النفس، وهــذا لا يكــاد يســتقيم على الإطلاق، وإنما يكــون ذلــك في بعض الأحــوال ؛ فإنهــا تطــرق ثم تســتلبها النفس، فأمــا على الإطلاق فلا، والأحـــوال لا تمـــتزج بـــالنفس، كالدهن لا يمتزج بالمــاء. وذهب بعضــهم إلى أن الأحوال لا تكــون إلا إذا دامت، فأمــا إذا لم تــدم فهي اللوائح والطوالع والبــواده، وهي مقــدمات الأحوال وليست بأحوال.
ثم قــال : فعلى مــا ذكرنــاه يتضــح تــداخل المقامــات والأحــوال حــتى التوبــة، ولا تعــرف فضيلة إلا فيهــا حــال ومقــام، وفي الزهــد حــال ومقام، وفي التوكــل حــال ومقــام، وفي الرضــا حال ومقام.

قال أبـو عثمـان الحـيري: منـذ أربعين سـنة مـا أقامني الله في حال فكرهته، أشار إلى الرضـا، ويكون منه حال ثم يصير مقاماً، والمحبـة حـال ومقام، ولا يزال العبد يتتوب بطروق حال التوبة حتى يتوب، وطروق حال التوبة بالانزجار أولًا.
قال بعضهم: الزجر هيجان في القلب لا يسـكنه إلا الانتباه من الغفلـة فـيرده إلى اليقظـة، فـإذا تيقظ أبصر الصواب من الخطأ.
وقال بعضهم: الزجر ضياء في القلب، يبصر بـه خطـأ قصـده، والزجـر في مقدمـة التوبـة على ثلاثـة أوجـه: زجـر من طريـق العلم، وزجـر من طريق العقل، وزجر من طريق الإيمان؛ فينـازل التائب حال الزجر وهي موهبة من اللـه تعـالى، تقوده إلى التوبة، فلا يـزال بالعبـد ظهـور هـوى النفس يمحـوه آثـار حـال التوبـة والزجـر حـتى تستقر، وتصير مقامًا وهكـذا في الزهـد لا يـزال يتزهـد بنازلـة حـال، تريـه لـذة تـرك الإشـغال بالدنيا، وتقبح له الإقبال عليها فتمحوه أثر حالـه بدلالة شره النفس وحرصـها على الـدنيا ورؤيـة العاجلة حتى تتداركه المعونة من اللـه الكـريم، فيزهد ويستقر زهده، ويصـير الزهـد مقامـاً، ولا تزال نازلة حـال التوكـل تقـرع بـاب قلبـه حـتى يتوكـل، وهكـذا حـال الرضـا حـتى يطمئن على الرضا، ويصير ذلك مقامه).

محل الحاجة منه، فالزجر وقوع نطفة التوفيق في رحم القلب، ثم بعده علقة الانتباه ثمّ بعد ذلك مضغة اليقظة، ثم بعده عظام فرع باب التَّوبة ثمّ كسو تلك العظام بلحم المجاهدة والمحاسبة والمراقبة، ثمّ ينشأ خلقًا آخر بنفخ روح التحقق في مقامات الإنزال، وغير ذلك إلى الاستقرار في حضرة ذي الجلال.

ثمَّ أشار إلى المقدمة الثانية مكتفيا عنها بذكرعلاماتها فقال رضي الله عنه :

ومن حُكْمِ حال الانتباه إذا بدا .... شهودك حال النفس في غاية الفقر
فتستغفرَالرحمن من كل زلّة ... وتسأله عفواً يرى البِشْر في النُّشر
وإن ذُكِرتْ دنيا اعتبرت وإن جرى ... لأُخراك ذكرٌ كنتَ منشرح الصَّدر
وإن ذُكر الجبَّار جل جلاله ... نَشَرتَ على العُلياءِ أوْلِوي الفَخر

الانتباه : خروج العبر من رقدة الغفلة، ويقال شاهده إذا عاينه، والمراد هنا المعاينة القلبية والنفس، قال الشيخ أبو العباس أحمد البناء

رضي الله عنه : "هو لفظ مشترك يُطلــق على نحـو من ثلاثمائـة معـنى" قالـه بعض الفضـلاء. وظاهر أن المـراد هنـا هـو هـذا المتنبه بكتابيـه ولطائفيه.

والفقر : الخلو من الشيء ضد الغنى.

والاســـتغفار : طلب السِّـــتر على الـــذنب، والصَّون عن عـذاب التخجيـل والفضـيحة، وهـو عذاب روحاني.

والعفو : محـــو الســـيِّئات، والتجـــاوز عن الخطيئات حتى يسقط العقاب عنه والمؤاخـذة، وهو عذاب جسماني.

والزلة : الخطيئة.

والرحمن: من أسمائه تعالى وتقدَّس مختصـر به سبحانه، جاري مجرى العلم، قريب من اسم اللـــه تعـــالى، وإن كـــان الـــرحمن مشـــتقًّا من الرحمة قطعا، قال الإمام أبو حامـد رضـي اللـه عنـــه : "فـــالرحمن هـــو العطـــوف على العبـــاد بالإيجـــاد أولاً، والهدايـــة إلى الإيمـــان وأســـباب السَّـــعادة ثانيًـــا، والإســـعاد في الآخـــرة ثالثًـــا، والإنعام بالنظر إلى وجهه الكريم رابعًا.

وفي التعبير به هنا مناسبة لا تخفى، وفي جمعه بين الاســـتغفار وطلب العفـــو، واســـم الـــرحمن إيماء إلى ما ذكره المفسرون في قوله تعالى : {وَاعْـــفُ عَنَّا وَاغْفِـــرْ لَنَـــا وَارْحَمْنَـــا أَنتَ مَوْلَانَا}من أنَّ الأول طلبَ ســـقوط العقـــاب

والمؤاخـــدة وهـــو جســـماني، ثم الثـــاني طلب الســـــتر والخلاص من الفضــــيحة والتخجيـــــل وهوروحاني، ثم الثالث طلب الثواب الجسماني وهــو نعيم الجنــة ولــذاتها وطيباتهــا، ثم الرابــع طلب الثواب الروحاني وغايتـه النظـر إلى وجـه الله الكريم وتجلي نور جلاله وعلى كبريائه.

و البِشر: - بكســـر البـــاء وســـكون الشـــين المحجمة - الطلاقة في الوجه.

و النشر : لـه معـانٍ وهـو هنـا الحيـاة الثانيـة، وبين قولـه البشـر والنشـر جنـاس مـركب من نوْعين من التجنيس فإن اختلاف هيئة الكلمـتين فقط نحــو كَلام وكِلام بـالفتح والكسـر، يسـمَّى جناسًــا محرفــا لانحــراف إحــدى الهيئــتين عن الأخرى، واختلاف حرف منها فقــط نحــو دامسٍ وطــامسٍ مـع تقـارب مخـرج الحـرفين يسـمَّى جناساً مضارعا، والبِشر والنشر بينهما الاختلاف في الهيئة، وفي الحرف تقارب المخرج.

و اعتــبرت : إمَّا من الاعتبـــار أو من العبـــور والمجـاوزة، وفي بعض النسـخ "اعـتزلت" أي : تمخيت (1) ببدنك وقلبك على حسب مرتبتك.

و منشــرح : أي منفتح وواســع، والصــدر أعلا مقدم كل شيء.

و الجبَّار : "من أسمائه تعالى وتقدّس، ومعناه فيه الذي تنفذ مشـيئته على طريـق الإجبـار في كـل أحـدٍ، ولا تنفـذ فيـه مشـيئة أحـدٍ، والـذي لا

يخرج أحد من قبضته، وتقصر الأيدي دون حمى حضـرته"، قاله **الإمام أبـو حامد** رضـي اللـه عنه. فهو على هـذا من الإجبـار الـذي هـو إنفـاذ الحكم قهـراً على العبـاد، قالـه بعض الشـيوخ، وتفسيره من الإجبار أولى، لأنـه جـاء في نسـق أسماء العزة والجلال والملـك، فلـزم أن يكـون على وضـعها، وقيـل معنـاه فيـه سـبحانه يـرد الممكن من فساد دنيـوي أو أخـروي إلى صـلاح وإرشاد فعلى هذا يكون مشتقًّا من الجبر الــذي هو الإصلاح والتلافي وكلاهما لايق بالمحل والله أعلم. فإن من ذكر أنَّ سيده تنفـذ مراداتـه في الأشياء جبراً ولا ينفذ فيه مراد أحـدٍ لحقـه زهـو وعزَّة كما قيل :

قوم تخالجهم زهْوٌ بسيدهم والعبد يزهوا على مقدار مولاه

1 - تَمَخَّيْتُ منه : تَبَرَّأْتُ ، وتَحَرَّجْتُ

وكذلك من ذكر أنه بمرأى من سيره و مسمع وأن سيره له اعتناء بشأنه وتلاف لأمره أدركه أيضًا نحو ذلك لا محالة، ولكن لمَّا كان الكلام مع من انتبه من سِنة الغفلة فوجد إظفار الخذلان فيه مبشرات، وشمل توفيقه في غاية الشتات، صحَّ لنا أن نقول إن المعنى الثاني هو

أنسب بالمحل والله أعلم. وجل جلاله، أي عظمت عظمته، حتى فاقت كل عظمة، ونشرت أي مدَّت وبسطت، العلياء ما ارتفع من الأرض، والألوية الأعلام، والفجر التمدح بالخصال، وما ذكر في هذا الشطر هو كناية عن إظهار الفرح بمولاه والمبالغة في الإشهار والتمدح بما به أولاه، يقول والله أعلم .

ومن حكم حال الانتباه من رقدة الغفلة وآثاره ونتائجه إذا بدا وظهر للزومك مطالعة الطوارق، وشهودك ووجدانك حال نفسك في غاية الفقر ونهاية الخلو عن أعمال الخيرات، ومن الثواب المرتب عليها من رب الأرضين والسماوات، لكونك لم تكن إلا مسترسلا في اتباع الشهوات وارتكاب المحظورات، وغير محرج على فعل شيء من الطاعات والقربات، ويحتمل أن يكون هذا العبد على وضع المقربين وممَّن أهل القرب من أوّل مرة، فلاستشعاره عظيم أمر ربه وفواته نصيبه منه يرى نفسه في غاية الذلة والاحتقار إلى العزيز الغفار، وهذا وصف شريف وحال منيف لأنَّ أحبّ أوصاف العبد إلى الله افتقاره إليه، وأشرف أحواله ما يرده إليه ويُقبل به عليه، وقد قال الشيخ تاج الدين رضي الله عنه في حكمه : (**معصية أورثت ذلاً وانكسارا خيرٌ من**

طاعة أورثت عزاً واستكبارا) وفيها أيضا :
(**ما طلب لك شيء مثل الاضطرار ولا أسرع بالمواهب إليك مثل الذلة والافتقار**
) ومن حكم حال الانتباه أيضًا : استخبارك الرحمن من كل زلة وخطيئة، وسؤالك منه عفوا يريك السرور والفرح في الحياة الثانية، يوم يقوم الناس لرب العالمين بخلاصك من العذاب وسقوط العقاب، وعلى الاحتمال الثاني فيما قبله يكون لاستشعاره ما هو عليه مولاه من الجلال والهيبة والكبرياء والعظمة، يستعظم معصيته ويخاف سطوته، فيستغفره سبحانه من كل مخالفة صدرت منه، ويلجأ إلى الله ويفر منه إليه، ويسأله عفوًا يمحو حجاب الغفلة، ويكشف سحاب الفترة، يريه ذلك العفو البشر في القيمة، حيث تتحق الحقائق وتتميز الطرائق.

و من حكم حال الانتباه أيضًا : أنك إن ذُكرت عندك الدنيا فإنك تنظر إلى سماجتها وقبح باطنها، وكيف هي تنقلب بأهلها، وكون مآلها للفناء ووجودها مصحوب بالعناء، ومباديها مقرونة بالبلاء، فيوجب لك ذلك تجاوزها حيث يظهر لك بطلانها والزهادة فيها والتجافي عن غرورها وزهرتها، وعلى أن اعتبرت من العبور والمجاوزة يكون المعنى، أنه لانكماشه في حاله ولوعته وغصته

إذا ذكرت عنده الدنيا وذكرها تجاوزها بهمّته ولم يقف معها، لكونه قد استولى عليه سكر ما هو فيه، وغلب عليه وارد التنبيه من الحق، وصار لا يرى غير حالته الراهنة حالا، ولا يقرر لنفسه عنها انتقالا، قد سكنت نفسه وضعفت دواعيها عن الميل إلى زخارفها العاجلة، وأمَّا على نسخته اعتزلت فهو قريب من هذا.

ومن حكم حال الانتباه أيضًا : أنك إن جرى لديك ذكر الآخرة كنتَ مسرور القلب، منشرح الصدر وكذلك الذكر، كأنك بما حصل لك بسبب ذلك الانتباه من النور الكاشف عن حقائق الأمور، وترى الآخرة قد قرب وصولها، إذ كل آتٍ قطعًا كالموجود في الحال وقد ادّخر مولاك في جنته ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطرَ على قلب بشر من النعيم المُقيم والنظر إلى وجهه الكريم وهي دائمة غير منقضيّة ولا منقطعة فيتسع صدرك ويبتهج قلبك بما أعدَّ مولاك لعباده فيها وتستبشر بها حيث كانت أقرب إليك من أن ترحل إليها فحقَّ بذلك عند حقها.

ومن حكم حال الانتباه أيضًا أنك مهما ذكرت جبَّار السموات والأرض طربت وفرحت

واستغرقك الفرح بمولاك، وأظهرت التمـدح بـه والافتخار به، أولاك تحدثاً بنعمته وإشهاراً لمنته حيث نبّهـك لخدمتـه والإيـواء لجنابـه والوقـوف ببابـه، وكـانت لـك منـه عنايـة سـابقة ومعونـة لاحقة، حتى أخرجـك من سـجن الغفلـة وأظهـر عليــك الطاعــة الخفيــة، كنتَ عــدما فصــرت وجوداً، و كنت نائمـاً في الغفلـة فصـرت منتبهـاً باليقظـة، وكنتَ في ظلمـة الطبـع فصـرت في نور العقل، وذلك كله من منة الله عليك ولطفه بك، ولـو شـاء لخلّاك ومـا كنتَ فيـه وأنت أهـل لذلك ومستحق له، كما فعل سبحانه ذلك بــأممٍ لا تُحصى وأظهر فيهم عدله وقسطه.

فــالعجزُ المــذكور هنــا ليس المقصــود بــه مــا يعتمده أصـحاب النفـوس المتكـبرة والمتحـيرة من أن من ساد منهم لا يدعه تكبره وتجبره من أن يفــاخر ويبــاهي بــذلك من لم يسُــد، وإنمــا المقصود هنا التحدث بنعم اللـه وإشـهار أمرهـا وإشارة ذكرها كما حقـق ذلـك الشـيخ أبـو عبـد الله محمد بن عبّاد رضي الله عنـه في رسـائله الكـبرى، وإنمـا قرّرنـا مـع كـل علامـة لأن هـذه الأشـياء هي مجمـوع الانتبـاه علامـات لا بعضـها كما ذكره في العوارف فقال : ثم بعد الآتي جار يجر العبد حال الانتباه.

قـال بعضـهـم : "من لـزم مطالعـة الطـوارق انتبه". وقال أبو يزيد : "علامة الانتباه خمس : "إذا ذكر نفسه افتقـر، وإذا ذكـر ذنبـه اسـتغفر، وإذا ذكر الدنيا اعتبر، وإذا ذكر الآخرة استبشـر، وإذا ذكر المولى افتخر". فأنت ترى كيف جعـل طلب المغفرة من الله على الـذنب أمـراً قائمـاً بنفسه، ولذلك جعلناه نحن كذلك، وإنمـا عطفـه الناظم رضي الله عنه بالفاء دون سـائر إخواتـه إشـارة إلى سـرعة حصـوله عن شـهود حـال النفس في غاية الفقر وملازمته له والجـاء تـدل على الاتصال و لا كذلك الآخر فإنه بينها، مثل ما بين هـاذين، ومن وُجـد فيـه بعض هـذه الأشـياء ففيـه من الانتبـاه بقـدر ذلـك. ثم أشـار إلى المقدمة الثالثة وانتقالـه منهـا إلى مقـام التَّوبَـة فقال رضي الله عنه :

ومـن بــعــده الحـالُ الذي هـو يـقـظـةٌ. ورودٌ يــرد الكــســر فــي غـايـة الجـبْـرِ.

تـُـشـاهِـدُ أنــحــاءَ النــحـاة فـتـنـتـحـي. عـلـى ثـقــةٍ مـا لـيـس بـالـمـسْـلك الـوَعْـرِ.
فَـــيـــبــدُو مــقــامَ الـتَّــوْبِ و هــو مَــمَـهَّـدٌ . فـدُونــك فـــاقــرع بـــابَـــه قـــرعَ مُــضْـطَـرِّ

ضمير بعده راجـع للانتبـاه، و"الحـال" الـذي هـو يقظـة مبتـدأ خـبره في المجـرور وقبْلـه، وفي بعض النسخ الحال التي هي يقظة، وكمـا جـرى كــان الحــال يــذكر ويــؤنث، و"ورود" أي وارد فصيغة المصدر بمعنى اسـم الفاعـل، وهـو إمـا بدل من قوله الحال إلى آخره أو عطف بيان له أو خبر بمبتدأ تقـديره هـو، و"يـرد" مضـارع ردّ، وفي بعض النسـخ "يريـك" ولا فـرق في غايـة الجبر أي غاية الإصلاح، وفي بعض النسخ عارية بدل قوله في غاية، وغاية ما ظهر لنا فيه أن أل في الكسر جنسية وعاريـة أي مكشـوفة باديـة، فيكون معناه يرد كسور العبر، عاريـة الجـبر أي ظاهريه، والله سبحانه أعلم.

إن هذا النظم في نسخه اختلاف كثير منها يخل بالمعنى والوزن أو بإحـداهما ومنـه مـا لا يخـل، فهمـا وذلـك لكـون متعاطيهـا كمـا قـدمنا أهـل

مراقبــة البــواطن غــير واقفين مــع الرســوم والظواهر، وغالب هذه الطائفة الشـريفة عـوام فلا تجدهم يضبطون كتبهم بالرواية ونحـو ذلـك، وهي سـيما أهـل العـرب هـذا دأبهم ليس لهم اعتناء بالرواية.

وقولــه "تشــاهد" هي هنــا قلبيــة وانحنــاء أي مقاصـــد، و"النحـــاة"" بالحـــاء المهملـــة أي القاصـــدين فتنتحى" أي فتقصـــر، وفي بعض النســخ النجــاة بــالجيم وفي بعضــها فتجتــني وتقطـف منهـا مـا ليس فيـه صـعوبة ، ونسـخة النجـاة بـالجيم هي الموافقـة والعـوارف وعلى ثقة أي على بصيرة والمسـلك الطريـق باعتبـار المرور فيه، و"الوعر"، أي الصّعب وفيه وإفـاؤه للنتيجة على مجموع المقدمات الثلاث و"يبــدو" أي يظهـــر و"الممهَّد" الموطّـــأ المبســـوط المســهل،" والــواو من قولــه وهــو ممهَّد وواو الحال والتَّوب" التوبة بمعـنى وهي الرجـوع إلى اللــه، و"دونــك" تسـتعمل في الحث والإغــراء، وهي اسم فعل ومعناهـا هنـا "خُـد"فيفحـوا لهـا مغـرور والكـاف للخطـاب و"القـرع" دق البـاب وضـربه ونحـو ذلـك والضـمير في بابـه الظـاهر والأولى أنه عائـد على التوبـة ويحتمـل أن يعـودٍ على اللــه سـبحانه، وإن لم يتقـدّم ذكـره قريبـاً

لدلالة المعـنى عليـه، وذكـر الاضـطرار يقتضـيه كقوله تعالى : {**حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ**}[ص: 32] فـإن الضـمير للشـمس في أحـد التـأويلين وإن لم يتقدّم ذكرها لكونهـا تفهم من السـياق، وذكــر العشــي يقتضــيها والمعــنى : المضــطر والمحتاج والملجا.

واعلم أن أول بلوغ زائر التوفيق إلى القلب هـو الزاجر، فإذا وجده أهلا للنزول واجد، جند نــوره في حط رحاله لـه، وظهـرت ثمـرات ذلـك على قالب ذلك القلب، من التجـافي عن دار الغـرور والإنابة لدار الخلـود، وطلب العفـو عمـا سـلمه ونحو ذلـك فهـو الانتبـاه، فـإذا قـام بـه وبإثمـده ودخــل إلى ســويدائه اكتملت عينــاه من إثمــده فزاح عنها ما كان بهـا من غشـى ظلمـة النفس واتبـاع الهـوى، فصـارت تبصـر حقـائق الأشـياء وتدرك تفاوت ما بينهما فهو اليقظة.

فإذا أحطت علما بما ذكرنـا، وبـان لـك مناسـبة ترتيب الناظم لمـا انتحلنـا، ورأيت بسـبب ذلـك حسن موقع قوله "تشاهدأنحاء النحـات" الـبيت ممّا فيه، فيقول والله أعلم : وينزل بالعبـد بعـد حال الانتباه من رقدة الغفلة حال اليقظة، وهــو وارد من الحق يهجم على قلبه فيرد ما كان فيه

مكســوراً بصــدمة المخالفــة في غايــة الجــبر والتلافي لا مكـــان ربطـــه بملـــزم الانقيـــاد والموافقــة، شــاهد وتــرى بســبب هــذا الــوارد مقاصد القاصدين، أي طره المتــوجهين فتصــعد منهــا على بصــيرة ومعرفــة منــك بمــا قصــدته طريقا ومسلكا سهلا للمرور فيه، ليس فيه وعر ولا صعوبة، وليس كل النـاس متفقـون في هـذا فكل أحد وما يليق باستعداده وقابليته وما يلائم غريزته، فينشأ عن الاتصاف بما قدّمنا ذكره من المقدِّمات الثلاث على ما ينبغي به ومقام التوبة حال كونه موطئاً ...ممكنا فروقك، حصنه حصن مقام التوبة، فاقرع بابـه وادْفَعِيـه قـرع مضـطرٍّ صادق الرغبة في دخولـه، صـاحب لجـإٍ وافتقـار وانكسار كأنك غريق في بحر أو ضـال ٍفي تيـه، ففــر كمــا تــرى لعيــاذك إلى مــولاك ولاترجــو لنجاتك أحد سواه ، ليس لـك حـول ولا قـوّة ولا شيء من الأسباب تستند إليه وتعتمد عليه.

قال الشـيخ أبـو طـالب رضـي اللـه عنـه : قـال بعض العــارفين في معــنى قولــه عــز وجــل : {**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْـطَرَّ إِذَا دَعَــاهُ**}[النمــل: 62] "أمَّن يُجيبُ المضـطرّ، إذا دعـاه المضـطرّ الــذي يقـف بين يــدي مــولاه فــيرفع يديــه إليــه بالمسألة، فلا يرى بينه وبين الله حسنة يستحق

بهـا شـيئا، فيقـول : هب لي مـولاي بلا شـيء، فتكون بضاعته عند مولاه الإفلاس، ويصير حاله مع كل الأعمال الإياس، فهذا هو المضطر".

وقال الشيخ **أبو الحسن الشاذلي** رضي الله عنه : (إذا أردت الدعاء فقدِّم إساءتك بين يديك وقل : "يا رب" ولا شيء، تجد الإجابة طوع يدك)، فإذا قرعت بابه على هذا الموقف تتفتح لك الأبواب، ولا يكون بينك وبين الله حجاب، ويقبل معذرتك، ويقيل عثرتك،، ويعجل طلبتك ويصير الرجوع إلى الله، وعدم التعريج على المخالفة وطنك ومستقرك. قال ذو النون المصري رضي الله عنه : "حقيقة التوبة أن تضيق عليك الأرض بما رحبت،حتي لا يكون لك قرار، ثم تضيق عليك نفسك كما أخبر الله تعالى في كتابه : {**حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا**}[التوبة:118] . وأصل هذه الأبيـات قولـه في العـوارف : وقـال بعضهم : الانتبـاه أوائـل دلالات الخـير، إذا انتبـه العبـد من رقـدة غفلتـه أدّاه ذلـك الانتبـاه إلى التيقُّظ، فإذا تيقَّظ ألزمه تيقظه الطلب لطريـق الرُّشد فيطلب، وإذا طلب عـرف أنـه على غـير

سـبيل الحــق فيطلب الحــق، ويرجــع إلى بـاب توبتــه، ثم يعطي بانتباهــه حــال التيقــظ، قــال فـــارس : أوفى الأحـــوال التيقـــظ والاعتبـــار . وقيل : التيقظ تبيان حظ المسلك بعد مشـاهدة سبيل النجـاة. وقيـل : إذا صـحّت اليقظـة كـان صاحبها في أوائل طريق التوبة. وقيل : اليقظـة حركة من جهة المولى لقلوب الخائفين، تــدلهم على طلب التوبة، فإذا تمَّ يقظته نقل بذلك إلى مقام التوبة،فهذه أصول ثلاثة تتقدّم التوبة.

واعلم أنّ ما تقدّم من أول النظم إلى هنـا جـار في حقِّ كل مسـلمٍ، واتخـاد الشـيخ خـاص بمَن أراد الانخــراط في سـلك عقــد هــذه الطائفــة الشريفة، أعني أنّه قـدَّم مـا يعم وأتى بعـده مـا يخصّ، وإلاّ فكوْن الشيخ لا يتخد إلا بعد تحصــيل مقـام التوبـة ليس بضـربة لازِب إذ كـل وكيـف يتفق له، ثمّ إنه لمّا كان الإنسان يتوب أوّلا توبة جُمَلِيَّة اعتقاديَّة فقــط ثمّ يأخــد في تتبــع ذلــك تفصيلا، وكان الأخد في ذلك بالتفصـيل لا أعـون عليه مثل الإسناد لشيخ ربّاني.
التــائب في أول أمــره يكــون متورِّعــاً بصــوْلَة العزم، وراكباً مطيَّة النَّدم والحزم، فيغفـل عنـه اللّعين إذ ذاك لمعرفتــه بخُــدَعِ الحــرب حــتى تنكس صوْلته وتخمد شركته ويرى أنه قد حصل

له رُعب لديه ويأمن من كرّته عليه، فعنـد ذلـك يجمع مَرَدتـه ويحمـل عليـه حملـة واحـدة، فـإن وجده مستتراً لشيخ ربّاني عالم صـمداني داخلاً تحت دائرة نظره، فلا طمـع لـه فيـه بـل يرتفـع من حيث ألمَّ ويحجم من حيث أقدم؛ وإلاّ أخـذه على الغفلة واستوثق منه وقليل مَن يخلص من يده .

ذكر الناظم أولا مقام التّوبة ذكرًا جمليًا هنـا في قوله : "فَـيـبـدُو مـقـامَ التَّـوْب" المـبيت، ثم ذكر الشيخ بقوله : "ومن بعده الشـيخ" لكن لمّـا قـال في وصـفه أنـه يلقى مـراد الحـق في السر والجهر تسلى منه إلى مـا ذكـر بعـده من قولـه فقُم إلى تمـام خمسـة أبيـات إذْ لـه نـوع تعلى بذلك ثمّ رجع إلى تكميل مـا يتعلـق بـذكر الشيخ، بذكر علامتـه، ومن يسـأل عنـه، وكيفيّـة التأدّب معه، ثمّ أخد في بيـان الأخـذ في التوبـة على سـبيل التفصـيل، فـذكر متمِّماتهـا من المجاهدة والمحاسبة والمراقبة والـورع الخـادم في ذلك كله، هذا ما فتح اللـه في وجـه تـرتيب كلامه ثمّ قال رضي الله عه :

وَمِـنْ بَـعْـدِهِ الشَّـيْـخ الَّذِي هُـوَ قُـدْوَةٌ. يَـلْقَـى مُـرَاد الحَـقِّ فِـي السِّـرِّ وَالجَـهْـرِ

الضـمير في قولـه : "ومن بعـده" يعـود لمقـام التوبـة، و"**الشـيخ**" مبتـدأ خـبره في المجـرور قبله، و"القدوة" مثلث القاف من يصح الاقتـداء به و"يلقى مراد الحق"، أي يبين ذلـك ويوضـحه وهـــو نعت ثـــان للشـــيخ، وفي بعض النســـخ و"يلقى" مضارع ألقى من الالقاء، وواوه للحـال وبعدها مبتـدأ مقـرِّرا، أي وهـو يلقى إلى آخـره، لأن الجملة الحالية المصـورة بالمضـارع المثبت إذا دخلت عليها ينوى بينهما مبتـدأ ويجعـل ذلـك المضارع خبرًا عند وفي بعضـها يكـافى مضـارع لآخر وغاية ما ظهر لنا فيه أنه إشـارة إلى نفـوذ نظــره وإصــابة رأيــه وكمــال بصــيرته وتنــوير ســريرته، حــتى لا يوقـف المريـد إلا فيمـا أهلـه المُتعالى لـه ولا يريـد منـه إلا مـا أراد اللـه منـه فيلاقي مــراده من المريــد مــراد اللــه منــه، أي يوافقه بل هو هو لأنه بالله فيما يأمر بـه وينهـاه عنـه، ويحتمـل أن يكـون أشـار لمـا للشـيخ من الإشراف على بـواطن المريـدين والتحكم فيهـا فإنــه يحــول بينــه وبين حالــه إذا ســطى عليــه، ويســتجلبه لــه إذا تخلّى عنــه، حــتى كأنّــه في الصورة يلاقي عنه القدر. و"الحق" من أسمائه تعـالى وتقـدّس، ومعنـاه فيـه سـبحانه الثـابت الوجود لذاته الذي لا يقبل الزوال ولا العــدم ولا

التغير لا أزلًا ولا أبدًا. وقيل هو المحق للكائنـات أي المثبت لـــذواتها وصـــفاتها ولـــولاه لبطلت وبقيت على العدم أبد الآباد. وقيـل هـو مظهـر الحق بقوله الصدق وحكمه العدل.

قـال الإمـام أبـو حامـد رضـي اللـه عنـه : "وأهل **التصوف** لما كـان الغـالب عليهم رؤيـة فناء أنفسهم من حيث ذاتهم، كان الجـاري على لسـانهم من أسـماء اللـه عـز وجـل في أكـثر الأحـوال اسـم الحـق، لأنهم يلحظـون الـذات الحقيقيـة دون مـا هـو هالـك في نفسـه" وفي بعض النسخ :الله بـدل الحـق، قـال الشـيخ أبـو عبد الله محمـد البكـري رضـي اللـه عنـه : هـو اسم علم على الذات الواجب الوجود وهو اسم مختص به تعالى فلا يسمّى به غيره شـرعاً ولم يقح خارجـا حفظـا لأحديتـه وتنبيهـا للعقـول السليمة على عدم المشاركة في ذاتـه فكمـا لا مشـاركة في اسـمه وشـعًا فكـذلك لا مشـاركة في المسمّى وجودًا وعينًا قال واختلف هـل هـو اسم الـذات من حيث هـو ، أو اسـم الـذات من حيث الصـفات، وعلى هـذا اختلفـوا هـل هـو مشتق أم لا، في النظر الأول يكون غير مشـتق وعليـه جمهـور العلمـاء من أهـل علم الكلام والحـديث والتصـوف، وبـالنظر الثـاني يكـون

مشــتقا، ثم إذا كــان مشــتقا فهــو من معــنى مسـتلزم لسـائر الصـفات الإلهيـة، فلـذلك كـان الأحسن في اشتقاقه أنه من أَلِـه بمعـنى تحيّـر، فهو فعّال بمعنى مفعول، أي المتحيِّر فيه وذلك لأن أبصـار أولي الألبـاب تحيَّرت وتفـرقت عنـد ظهور شمس جلاله، واندكت جبال العقول عنــد تجلي نور جلاله، وذلك يستلزم التميز عن سائر الممكنات بذاته، والتعزز من أن ينال شـيء من حقيقة أفعاله، فضلا عن صفاته وذاته، وبالجملة فهذا الاشتقاق يشعر بالاتصـاف بصـفات الجلال وصفات الإكرام الـتي لا يمكن المشـاركة فيهـا، وذلك حجـة الألوهيـة أو مسـتلزم لهـا، أو يكـون مشــتقًّا من إلــه بمعــنى بفعــال أيضــا بمعــنى مفعول، أي معبود لأنه جل وعلا متصـف بجميـع الصفات التي بها إيجاد الأشـياء وحفظهـا، وكـل ما كان كذلك فهو مقاد له ومذل، وكل مـا كـان كذلك فهو معبـود، وهـذان الوجهـان أحسـن مـا ذكــر في الاشــتقاق، وســائر وجــوه الاشــتقاق المــذكورة في الكتب المبســوطة ترجــع إلى أحدهما بالتأمل. وقوله "في السر والجهـر" من أنواع البـديع المطابقـة ويسـمّى أيضـا بالطبـاق والتضاد وهو أن يجمع بين معنـيين، بينهمـا نـوع من أنواع التقابل، حقيقيا كان أو اعتباريًا كالليل والنهــار، والمــوت والحيــاة، والنــوم واليقظــة، والسر والجهر.

يقــول والله أعلم : والشــيخ الــذي هــو أهــل للاقتــداء بــه يطلبــه المريــد بعــد تحصــيل مقــام التوبة وأهليته للاقتداء به، هو يكون متبعًا للسنّة متمكِّنًا ذو قــوّة في المعرفــة، مُحصِّــلًا للســلوك والجــذبِ معًــا، ولا يكتفي بأحــدهما عن الآخــر، على أنّ الذي تقــدَّمت جذبتــه على ســلوكه أعلا عند الأكثر، وعليه صـاحب العـوارف، وقـد تكلم في ذلك بما لا مزيد عليه فطالعه إن شئتَ.

وقــال الشــيخ أبــو عثمــان ســعد الــدين ســعيد الفرغاني رضي الله عنــه : الــذي تقــدّم ســلوكه على جذبتــه مــع أنهمــا في جــواز الاقتــداء بهمــا وبلوغهما مرتبة التلــوي في التمكين وتحقيقهمــا بالكمال والخلافة ونحــو ذلــك ســواء، لكن الأول أمكن وأعلا لكـــون عبـــوره على المقامـــات والتحقق بها على بصيرة وبيِّنَةٍ من ربِّه.

وأمّا السالك الذي تحقّق بالمقامات أكثرهـا ولم تداركه عناية الجذبة لبقية كـانت فيـه باقيـة من أحكـام نفسـه وآثـار خلقيتـه ، فهـو غـير مؤهـل للمشيخة والمرادية والاقتداء به ؛ لأنه بعـد عبـد نفسه ، فـإن المكـاتب عبـد مـا بقي عليـه أدنى من درهم والعبد لا يصـلح للتصـريف إذا لم يكن عبدا محضا للمصرف وواهب التصرّف .

وأمّـا المجـذوب الـذي مـا تفـرّغ من الاشـتغال بحاله في مجذوبيته إلى الرجوع من عالم الحقّ الذي هو عالم القدرة وارتفاع الوسـائط وخـرق حجب الأسباب إلى عالم الخلق الذي هـو عـالم الحكمـــة وتحقيـــق الوســـائط والأســـباب إلى الاشتغال بالسلوك والتحقّق بالمقامات بوسايط شـيخ مرشـد أو بلا واسـطة ، فهـو أيضـا غـير مؤهل للمشيخة والاقتداء به لاشتغاله بحاله عن حال غيره وعدم تحقّقه بالمقامات .
واعلم أن ســـلوك الطريـــق لمريـــد الكشـــف والتحقيـــق، لا يكـــون من غـــير إلـــزام الطاعـــة والانقيــاد لشــيخ محقــق مرشــد، على الوقــف المتقدم؛ لأن الطريـق عـويص وأدنى زوال يقـع على المحجة يؤدي إلى مواضـع في غايـة البعـد عن المقصود.

قال الشيخ أبـو الحسـن الششـتري رضـي اللـه عنـــه :(ولا بـــد ان يتحكم لمن يـــأمره وينهـــاه، ويبصـره فـإن الطريـق عـويص، قليـل خطـاره، كثير قطاعه، وقد يظن السالك أنه على جادتـه، وهو قد ولى ظهره لموضع توجهه منه، فإنــه إذا خرج منـه أنملـة فقـد خـرج وانقطـع، وانصـرف سـيره على أشـعة تلـك الأنملـة، فإنـه طريـق

دقيق، ونفس متصرفة في البدن، وهي الراحلة عنه، وعادة مألوفة، وشيطان هذا الطريق فقيه بمقاماته ونوازله).

قال أبـو عمـر الزَجَّاج : (لـو أن رجلًا كشـف لـه عن الغيب، ولا يكــون لــه أســتاذ لا يجيء منــه شيء).

وقال إبـراهيم بن شـيبان رحمـه اللـه : (مَن لم يكن له أستاذ فهو بطّال).

وقال أبو علي الثقفي رضي اللـه عنـه : (لـو أن رجلاً جمع العلوم كلها، وصحب طوائف النــاس، لا يبلغ مبلـغ الرجـال إلا بالرياضـة، من شـيخ أو إمام أو مؤدب ناصح، ومن لا يأخذ أدبه من آمــر له وناهٍ يريه عيوبَ أعمالـه ورُعونـات نفسـه، لا يجوز الاقتداء به في تصحيح المعاملات.).

وقال الشيخ أبو مدين رضي الله عنــه : (مَن لم يأخد الأدب من المتأدبين أفسد من يتبعه).

قال الشيخ **أبو العباس المرسي** رضـي اللـه عنه : (كل من لا يكون له في هذا الطريق شيخ لا يفرح به). ولو كان وافر العقل منقاد النفس، واقتصر على ما يلقى إليـه شـيخ التعليم فقـط، فلا يكمل كمال من تقيـد بالشـيخ **المربي** لأن النفس أبدًا كثيفة الحجاب عظيمة الإشراك، فلا بد من بقاء شيء من الرعونات فيها، ولا يـزول عنها ذلك، بالكليـة، إلا بالانقيـاد للغـير والـدخول تحت الحكم والقهر، - حسبما ذكره الشـيخ أبـو عبد الله محمد بن عباد رضي الله عنه - وكذلك لو كان سبقت إليه من الله عناية وأخـذه الحـق إليه، وجذبه إلى حضرته، لا يؤهل للمشيخة، ولو بلغ ما بلغ.

قال الشيخ أبو الفضل تاج الدين أحمد بن عطاء الله رضي الله عنه في لطائفه : (وكـل لم يكن له أستاذ يصله بسلسلة الإتباع ويكشـف لـه عن قلبه القناع، فهو في هذا الشأن لقيط لا أب له، دعي لا نسب لـه). فـإن كـان لـه نـور فالغـالب عليه غلبة الحال، والغالب عليـه وقوفـه مـع مـا يرد عليه من الله إليه، لم ترمه سياسة التأديب والتهـذيب، ولم يقـده زمـام التربيـة والتـدريب. وقال الشيخ أبو عثمان سـعيد الفرغـاني رحمـه اللـه : (المجـذوب المتـدارَك الراجـعُ من عـالَم

الحـــق إلى عــالَم الخلــق، لا يكمــل ولا يصــلح الاقتداء به إن لم يكن له مراد مرشد يهديه إلى فــائق المقامــات وإن كــان على بيِّنــة من ربــه وبصــــيرة في ســــلوكه فــــإن في المقامــــات الإسلامية والإيمانية دقائق لا تُـدرك إلا من حيث الخلقيّة، والاطلاع عليها متوقف على اطلاع من أُطلــع عليهــا بنظــر خلقيتــه فلا يكتفي بالبينــة الحقيقيــة الــتي للمجــذوب فكــان محتاجًــا إلى المرشد).

وكلام الشـيوخ في الحض على الشـيخ الربـاني والتحذير من ضد ذلك كثير كما هـو مسـطّر في كتبهم، وقد قـال في العـوارف المقصـود الكلي هو الصحبة وبالصحبة يُرجى للمريد خير.

روي عن أبي يزيـد أنــه قــال :(من لم يكن لــه أســتاذ فإمامــه الشــيطان) وحكى الأســتاذ أبــو القاسم القشـيري عن شـيخه أبي علي الـدقاق أنـه قـال : (الشـجرة إذا نبتت بنفسـها من غـير غارس فإنها تورّق ولا تثمر وهو كما قال ويجــوز أنها تثمـر كالأشـجار الـتي في الأوديـة والجبـال ولكن لا يكــون لفاكتهــا طعم فاكهــة البســاتين، والغــرس إذا نقــل من موضــع إلى موضــع آخــر يكون أحسن وأكثر ثمرة لدخول التصــرف فيــه، وقــد اعتــبر الشــرع وجــود التعليم في الكلب

المعلم وأحــل مــا يقتلــه بخلاف غــير المعلم، وسمعت كثـيرا من المشـايخ يقولـون : "مَن لم ير مفلحًا لا يُفلح".

وقد وقعت مشاجرة ومنـاظرة فى آخـر المائـة الثامنــة بين فقــراء الأنــدلس، حــتى تضــاربوا بالنعال، وذلك : هل يكتفي بمشـاهدة الرسـوم، ومطالعــة الكتب في طريــق الصــوفية، أهــل التوحيد الذوقي والمعرفة الحقيقيـة الوجدانيـة، أم لا بد من الشيخ !؟ فكتبوا في البلاد، فأجـاب فيها كل أحد على قدر نظره : كالشيخ أبي عبـد الله بن عبّاد رضي الله عنه وجوابه في رسـائله الصغرى، وكالشـيخ أبي بكـر محمـد بن خلـدون رحمه الله، وقد أفرد لهذه المسألة تأليفًا سماه : "شفاء السـائل" وهـو ممتنـع غايـة، وقـد ذكـر حاصل ذلك الشيخ أبو العباس رضـي اللـه عنـه فقـال : "ضـبط النفس بأصـل، يرجـع إليـه في العلم والعمــل [لأنــه] لازم لمنــع التشــعب والتشعث، فلزم الاقتداء بشيخ، قد تحقق اتباعه للسنة، تمكنه من المعرفة ليرجع إليه فيما يريد أو يراد، مع التقاط الفوائـد الراجعـة لأصـله من خارج، إذ الحكمة ضـالة المـؤمن، وهـو كالنحلـة ترعى من كل طيب ثم لا تبيت في غير جبحهــا، وإلا لم ينتفع بعسلها.

وقد تشاجر فقراء الأندلس من المتـأخرين، في الاكتفـاء بـالكتب عن المشـايخ ثم كتبـوا للبلاد، فكل أجاب على حسـب فتحـه. وجملـة الأجوبـة دائرة على ثلاث:

أولها: النظر للمشايخ، فشيخ التعليم تكفي عنـه الكتب للبيت حـاذق الـذي يعـرف مـوارد العلم. وشيخ التربية تكفي عنه الصحبة لذي دين عاقل ناصح. وشيخ الترقية يكفي عنه اللقاء والتـبرك. كل ذلك من وجه واحد أتم.

الثاني: النظر لحـال الطـالب، فالبعيـد لا بـد لـه من شـــيخ يربيـــه، واللـــبيب تكفي الكتب في ترقيـه، لكنـه لا يسـلم من رعونـة نفسـه، وإن وصل لابتلاء العبد برؤية نفسه.

الثـالث: النظـر للمجاهـدات. فـالتقوى لا تحتـاج إلى شـيخ لبيانهـا وعمومهـا. والاسـتقامة تحتـاج إلى شـيخ في تميـيز الأصـلح منهـا، وقـد يكتفي دونه اللبيب بالكتب ومجاهدة الكشف، والترقية لا بـد فيهـا من شـيخ يرجـع إليـه في فتوحهـا، كرجوعه عليـه السـلام للعـرض على ورقـة [بن نوفـل] لعلمـه بأخبـار النبـوة ومبـادئ ظهورهـا، حين فاجـأه الحـق. وهـذه الطريقـة قريبـة من الأولى والسنة معهما، والله أعلم.

ويقرب من قول الناظم ومن بعده الشيخ قول الإمام أبي حامد رضي الله عنه، فإذْ أُقدِّم هذه الشروط الأربعة، يعني التجرد من المال والجاه والتقليد والمعصية، كمن تطهّر وتوضأ ورفع الحدث وصار صالحًا للصلاة فيحتاج إلى إمام يقتدي به، فكذلك المريد يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدي به لا محالة ليهديه إلى سواء السبيل، فإن سبيل الدين غامض وسبُل الشيطان كثيرة ظاهرة، ومن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان لا محالة إلى طرقه، فمن سلك البوادي المُهلكة بنفسه من غير خبير فقد خاطر بنفسه وأهلكها، ويكون المستقل بنفسه كالشجرة التي تنبت بنفسها فإنها تجف على القرب وإن بقيت مدّة وأورقت لم تُثمر.

و قوله : **"يلقى مراد الحق بالسرور والجهر"** يعني يبين و يوضح مراد الله للمريد في ظاهره وباطنه، أمّا في ظاهره فيسلك به طريق الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تستقيم أقواله وأفعاله، وتتضح له متابعته، وتقع في كل شيء معه مرافقته، قال بعضهم : "استجيبوا لله بسرائركم وللرسول صلى الله عليه وسلم بظواهركم".

وأمّا في باطنه، فيسلك به طريق التزكية، فيؤدبه ويهديه ويعرفه بآفات نفسه، ويسوسه كما كان من قبل يسوس نفسه، ولا يزال به إلى أن يقطع منازل آفاتها وتتبدّل أخلاقها ونعوتها ويحكم أساس التقوى ويباعدها عمّا تهوى، فتزكوا نفسه وتنجلي مرآة قلبه فتنعكس فيها أنوار العظمة الإلهية، وتنجذب احداق بصيرته إلى مطالعة الكمالات الأزلية وتتجلي أيضًا فيها الأشياء على هيئتها وماهيتها فتبين له الدنيا بقبحها وتظهر له الآخرة بحسنها فيزهد في الفاني لِما عاين من الباقي، وينكشف له عوار هذه الدّار ويزول عنه الاغترار، ويظهر له بواظن الأسرار، ويصير مؤمنًا حقًّا وعبدًا صرفًا. وأصل هذا الشرط قوله في المعارف : ورد في «الخبر» عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَئِنْ شِئْتُمْ لَأُقْسِمَنَّ لَكُمْ، إِنَّ أَحَبَّ عِبَادِ اللهِ إِلَى اللهِ الَّذِينَ يُحَبِّبُونَ اللهَ إِلَى عِبَادِهِ، وَيُحَبِّبُونَ عباد الله إلى الله، وَيَمْشُونَ فِي الْأَرْضِ بِالنَّصِيحَةِ**».

وهذا الذي ذكره رسول الله هو رتبة المشيخة والدعوة إلى الله ؛ لأن الشيخ يُحَبب اللهَ إلى عباده حقيقة، ويحبب عبادَ الله إلى الله، ورتبة

المشيخة من أعلى الرتب في طريق الصـوفية، ونيابـة النبـوة في الـدعاء إلى اللـه، فأمـا وجـه كـون الشـيخ يُحَبب اللـهَ إلى عبـاده لأن الشـيخ يسلك بالمريد طريق الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن صَحَّ اقتداؤه واتباعه أحبه الله تعالى.

قال اللـه تعـالى:﴿**قُـلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللـهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ**﴾ [آل عمران: 31].

ووجـه كونـه يحبب اللـه تعـالى إلى عبـاده لأنـه يسـلك بالمريـد طريـق التزكيـة، وإذا تـزكت النفس انجلت مرآة القلب، وانعكس فيها أنـوار العظمـة الإلهيـة، ولاح فيهـا جمـال التوحيـد، وانجـذبت أحـداق البصـيرة إلى مطالعـة أنـوار جلال القدم، ورؤية الكمال الأزلي، فأحب العبـد ربَّه لا محالة، وذلك ميراث التزكية.

قـال اللـه تعـالى: ﴿**قَـدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا**﴾ [الشـمس: 9]. وفلاحُهـا بـالظفر بمعرفـة اللـه. وأيضًا مـرآة القلب إذا انجلت لاحت فيهـا الـدنيا بقبحهـا وحقيقتهـا وماهيتهـا، ولاحت الآخـرة ونفائِسُـها بكنههـا وغايتهـا، فتنكشـف للبصـيرة

حقيقةُ الدارين وحاصل المنزلين، فيحب العبد الباقيَ، ويزهد في الفاني، فتظهر فائدة التزكية وجدوى المشيخة والتربية، فالشيخ من جنود الله تعالى، يرشد به المريدين، ويهدي به الطالبين.

واعلم أن سلوك الطريق لمن لمريد الكشف والتحقيق لا يكون من غير إلزام الطاعة والانقياد لشيخ محقق مرشدٍ على الوقف المتقدم لأن الطريق عويص، وأدنى زوال يقع على المحجة يؤدي إلى مواضع في غاية البعد عن المقصود.

قال الشيخ أبو الحسن الششتري رضي الله عنه: وإن لا بدَّ أن يتحكم لمن يأمره وينهاه، ويبصره فإن الطريق عويص: قليل خطّاره، كثير قُطّاعِه وقد يظهر للسالك أنه على جادته وهو قد ولّى ظهره لموضع توجهه منه، فانه إذا خرج منه أنملة فقد خرج وانقطع، وانصرف شيعه على أشعة تلك الأنملة، فانه طريق دقيق، ونفس متصرفة في البدن، وهي الراحلة، وعادة مألوفة، وشيطان هذا الطريق فقيه بمقاماته ونوازله.قال أبو عمرو الزجاج

رضـي اللـه عنـه: لـو أن رجلا كشـف لـه عن الغيب، ولا يكون له أستاذ لا يجيء منه شيء.
وقـال إبـراهيم بن شـيبان رحمـه اللـه : من لم يكن له أستاذ فهو بطّال.
وقالٍ أبو علي الثقفي رضـي اللـه عنـه : لـو أن رجلاً جمع العلوم كلها، وصحب طوائـف النـاس لا يبلغ مبلـغ الرجـال إلا بالرياضـة من شـيخ، أو إمام، أو مـؤدب ناصـح، ومن لم يأخـذ أدبـه عن آمرٍ له وناه يريه عيوب أعماله ورعونات نفسه، لا يجوز الاقتداء به في تصحيح المعاملات.
وقال الشيخ **أبو مدين** رضي الله عنـه: من لم يأخذ أدبه من المتأدبين أفسد من يتبعه.
وقال الشيخ **أبو العباس المرسي** رضي الله عنه: كل من لا يكون له في هذا الطريـق شـيخ لا يفـرح بـه. هـ. ولـو كـان وافـر العقـل منقـاد النفس، واقتصر على ما يلقى إليه شـيخ التعليم فقط، فلا يكمل كمال من تقيد بالشـيخ المـربي لأن النفس أبـــدًا كثيفـــة الحجـــاب عظيمـــة الإشراك، فلابـد من بقـاء شـيء من الرعونـات فيها، ولا يـزال عنهـا ذلـك، بالكليـة، إلا بالانقيـاد للغـير والـدخول تحت الحكم والقهـر، حسـبما ذكره الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبـاد رضـي الله عنـه وكـذلك لـو كـان سـبقت لـه من اللـه عناية وأخذه الحق إليه، وجذبـه إلى حضـرته، لا يؤهل للمشيخة، ولو بلغ مـا بلـغ. والحاصـل: أن

الوسيلة العظمى، والفتح الكبير، إنما هو في التحكيم للشيخ لأن الخضوع لمن هو من جنسك تأنفه النفس، ولا تخضع له إلا النفس المطمئنة، التي سبقت لها من الله العناية.
قال الشيخ أبو الفضل تاج الدين أحمد بن عطاء الله رضي الله عنه في لطائفه :وكل من لم يكن له أستاذ يصله بسلسلة الاتباع، ويكشف له عن قلبه القناع، فهو في هذا الشأن لقيط، لا أب له، دعي لا نسب له، فإن يكن له نور، فالغالب عليه غلبة الحال، والغالب عليه وقوفه مع ما يرد من الله إليه لم ترضه سياسة التأديب والتهذيب ولم يقده زمام التربية والتدريب.
وقال الشيخ أبو عثمان سعيد الفرغاني رحمه الله : "المجذوب المتدارك الراجع من عالم الحق إلى عالم الخلق، لا يكمل ولا يصلح الاقتداء به إن لم يكن له مراد مرشد يهديه إلى دقائق المقامات، وإن كان على بينة من ربه وبصيرة في سلوكه، فإن في المقامات الإسلامية والإيمانية دقائق لا تدرك إلا من حيث الخلقية، والاطلاع عليها متوقف على اطلاع من اطلع عليها بنظر خلقيته، فلا يكتفي بالبينة الحقيقية التي للمجذوب، فكان محتاجا إلى المرشد.

وكلام الشـــيوخ في الحض على اتخــاذ الشــيخ الرباني، والتحـذير من ضـد ذلـك كثـير كمـا هـو مســـــطر في كتبهم، وقــــــد قـــــال في العـــوارف :المقصـــود الكلي هـــو الصـــحبة، وبالصحبة يرجى للمريد كل خــير.وروى عن أبي يزيـد أنـه قـال: من لم يكن لـه أسـتاذ فإمامـه الشيطان.

وحكى الإمــام **القشيري** عن شــيخه أبي علي الدقاق أنه قال : الشجرة إذا أنبتت بنفسـها من غير غارس، فإنها تورق و لا تثمر. وهو كما قال: ويجــوز أن تثمــر كالأشــجار الــتي في الأوديــة والجبـال، ولكن لا يكـون لفاكهتهـا طعم فاكهـة البسـاتين، والغـرس إذا نقـل من موضـع لآخـر، يكون أحسن وأكثر ثمرة لدخول التصـرف فيـه. وقــد اعتــبر الشــرع وجــود التعليم في الكلب المعلم وحــل مــا يقتلــه بخلاف غــير المعلم، وسمعت كثيرا من المشايخ يقولون: من لم يــر مفلحا لا يفلح.